حكايات الأطفال
فى ضوء التحليل النفسى

الحكايات الشعبية تتأثر بالنفس وتؤثر فى النفس فهى نتاج العقل الباطن الجمعى وتشكّل العقل الباطن الفردى، وربما كان فرويد أول من تنبه لهذا عندما قال « قبلى كان الشعراء ، يقصد أن شعراء الملاحم والأساطير هم من اكتشفوا التحليل النفسى قبل أن يكتشفه بل إن فرويد جعل من أسطورة أوديب أساسا لعلم النفس الجديد، ومن هذه المسلمة يجب أن نتروى فيما نقدمه للطفل من حكايات فهى التى سوف تصنع منه الرجل السوى أو المجرم الأثيم . يقول الشاعر الألمانى شيللر « من حكايات أمى الخرافية تعلمت حقائق الحياة كاملة » ، والطفل حين يسمع الحكاية فإنه يستقبل معنى من وراء المعنى وقد لا يدرك المعنى الجديد إلا بعد أن يتخطى الطفولة ويدرج إلى الشباب وبناء العقل البشرى محتاج إلى الرمز الذى يلمسه الطفل أول ما يلمس فى الحكايات فالحكاية تبنى عقل الطفل وتأخذ عملية البناء سنوات طويلة ينتقل فيها الشىء الحسى فى الحكاية ليصبح رمزاً والحكاية تخلق للطفل عالماً آخر إلى جانب عالمه الواقعى ، وهذا العالم الآخر يصعد بالواقع إلى عالم مثالى ، والحكايات علاج نفسى لكنها ككل العلاجات النفسية تستغرق وقتا طويلاً ولربما كانت شهرزاد أول من عالج بالقص ، فقد تمكنت من علاج شهريار الذى كان يعانى من جنون القتل فيقتل كل يوم امرأة عن طريق الحكايات واستمرت مدة العلاج ألف ليلة وليلة ، وفى قصص ألف ليلة وليلة يقوم الجن بدور رئيسى . وقد اعترف علم النفس الحديث بالجن حيث أشار «يونج» لوجود عنصر ذكورة «أنيموس « فى الأنثى وعنصر أنوثة « أنيما « فى الذكر، وهى نفس فكرة القرين والقرينة فى التراث الشرقى فلكل رجل قرينة من الجن ولكل أنثى قرين من الجن ومن المعروف أنه إذا كان القرين هو الأقوى يضعف الإنسان ، وكذلك فى علم النفس إذا كان عنصر الذكورة فى الأنثى أقوى كان ذلك عائقاً نفسياً يسبب الاضطراب، كذلك إذا كان عنصر الأنوثة فى الذكر أقوى كان الذكر مضطرباً نفسياً، وكذلك فى الحكايات يحدث الاضطراب إذا سيطر القرين على الإنسان ومن الممكن أن نعتبر « ألف ليلة وليلة » تمثل هيكل علم النفس التحليلى، والنفس الإنسانية تتكون من الأنا والأنا الأعلى والهو الذى يمثل الغرائز الوحشية وكان شهريار يقتل كل يوم عذراء فهو يمثل « الهو « أى الغرائز الوحشية حتى التقى بشهرزاد التى تمثل الأنا فعالجته بالحكايات التى تمثل الأنا الأعلى، والحياة عبارة عن صراع بين الأنا الأعلى والهو، وقد يسقط فيها الأنا أو يعلو.

ويكفى فى الدلالة على ارتباط حكايات الأطفال بالطب النفسى أن حكاية قبل النوم التى كانت الأمهات يقصصنها على الأطفال تجلب النوم فى عيونهم وينامون نوماً هادئاً بأحلام سعيدة، بينما ينام الطفل اليوم على أفلام الكرتون والعنف والإثارة والرعب فى التلفاز فينام نوماً مضطرباً بكوابيس مرعبة ويتبول على نفسه لا إراديا أثناء النوم من فرط ما شاهده من مشاهد رعب. كان صوت الأم الهادئ الجميل آخر ما يصل إلى سمع الطفل قبل أن يستغرق فى نومه وهى تقص عليه بطولة عقلة الإصبع وقد انتصر على الغول الشرير فأمسى الطفل وآخر ما يصل إلى سمعه قبل أن ينام موسيقى شيطانية تنبعث من جهاز التلفاز، لقد شاهدت بنفسى أحد الأطفال يحاول اقتحام جهاز التلفاز لكى يحذر البطل الأوروبى من أعدائه الأفارقة الأشرار . ويقول كولردج عن الأساطير والحكايات الشعبية « إنها لست أوهاما بل هى منطوق النفس الإنسانية وهى الإدراك الرمزى للحقائق ومحاولة لخلق الإنسجام المفتقد فى الحياة والرضا بها ومن خلالها نستجمع إرادتنا وتتوحد قوانا وينضبط نمونا ويتزن كياننا ويلتئم وجودنا المشعث ويطمئن التناقض وينسجم النشاز»، وفى كل خرافة نجد علما حقيقيا من علوم النفس الإنسانية. وفى قصة « ذات الرداء الأحمر « أراد الذئب أن يلتهم الفتاة ذات الرداء الأحمر فالتهم جدتها وارتدى ثيابها ونام فى فراشها وحاكى الجدة فى حنانها حتى إذا أتت الفتاة لزيارة جدتها حاول الذئب التهامها، وهى قصة رمزية تعليمية تحذر الفتيات من الشباب الذئاب فذات الرداء الأحمر فتاة راهقت البلوغ وأتتها الدورة الشهرية فالرداء الأحمر كناية عن الحيض والتهام الذئب للفتاة هو إغتصابها من الشاب الذى يتقمص الجدة فى حنانها لكى يخدع الفتاة والقصة تُروى للفتيات الصغيرات فترسخ فى وعيهن الباطن برموزها التى لا يتم حلها إلا بعد أن تصل الفتاة للبلوغ وتصطدم بالذئاب من الشباب .

والحكاية الشعبية تجسد للطفل المشكلة وتصور له أبعاد الخير والشر وتنتهى دائماً بانتصار الخير وهزيمة الشر وتظهر الشرير فى أقبح صوره وتمثل أزمات النمو والمشكلات النفسية التى يتعرض لها الإنسان خلال سيرورته تاركة للطفل أن يختار . وحكايات المارد الذى يخرج من القمقم ملبياً طلبات من أخرجه أو قاتلاً إياه هى فى الواقع الحياتى حكاية الزعيم الكاريزمى الذى يخرج من الوجدان الجمعى لشعبه فى الأزمات كما يخرج المارد من القمقم زاعماً لشعبه أنه سوف يحقق آماله فى الرخاء وإن كان سوف يقضى عليه كما فعل هتلر وموسولينى وستالين واقرانهم من زعماء العالم الثالث ولذلك فكل خرافة أو أسطورة أو حكاية هى رمز لواقع حقيقى يعيشه الناس و الطفل يتحرك نفسياً مع الحكاية دون أن يفكر فى منطقها ويلتقى عالم الطفل مع عالم الحكاية وكلاهما يتحرك فى عالم الإحساس لا عالم المنطق ويشعر الطفل أن عالمه هو عالم الحكاية تماماً والحكايات ترجمة ذاتية رمزية للطفل يدرك من خلالها نفسه وعالمه والأسطورة تعبر عن المراحل التطورية للجنس البشرى وما يسمعه الطفل من حكايات يلازمه فى جميع مراحل تطوره حتى مماته ، فسنوات الطفوله الأولى هى سنوات التكوين التى تلقى بظلالها على حياة الطفل بأكملها والأسطورة مرحلة من مراحل التقدم العلمى فالإنسان يحلم ثم ينسج حلمه فى أسطورة يحاول أن يحققها فقد حلم الإنسان بالطيران ونسج حلمه فى أسطورة « إيكاروس » الذى حاول الطيران وبعد مراحل عديدة اخترع الطائرة، وليست حكايات الأطفال مقصورة على الخرافات فقط وإن كانت هى الأكثر تأثيراً فكما يقول أينشتين « الخيال أهم من العلم فالعلم محدود ولكن الخيال يلف العالم وما وراء العالم من عوالم » لكن هناك أيضاً القصص التعليمية، ومن الممكن أن نضع كتاب « كليلة ودمنة « فى هذا الإطار وإن كان يميل إلى الخرافة وهناك القصص الدينى وقصص الأنبياء والصالحين وهى تؤدى إلى ضبط النمو النفسى والعقلى للطفل وهناك الأشعار التى تحتوى على حكايات للأطفال وهى تلبى فى الطفل حاجته للإيقاع والرمز واللغة السليمة والحكايات الخرافية بشكل عام هامة لصحة الطفل النفسية فهى تشبه الأحلام ولا تخفى أهمية الحلم بالنسبة للإنسان فهى إخراج لدوافع داخلية فى شكل موضوعى فالحلم يجسد ما فى النفس من دوافع الخوف والرغبة فى شكل صور ورموز فإذا بالمشكلات الداخلية المعقدة تتحول من تلقاء نفسها إلى موضوع حكاية تبدو مستقلة عن الدوافع الداخلية، كما هو الحال فى الحكاية والحكاية الخرافية تخرج المختزن اللاشعورى إلى الشعورى والوعى فيحدث الانسجام بين شعور الإنسان ولا شعوره وهو ما نسميه تكامل الشخصية وهى نفس عملية التحليل النفسى التى يقوم بها المحلل النفسانى، وهكذا فالحكاية الخرافية تكشف العمليات الداخلية التى تصاحب الإنسان منذ ولادته، وليس هذا الكلام على إطلاقه فليست كل الحكايات الخرافية تعمل عمل الطبيب النفسى، محكايات أفلام الكارتون فى التلفاز تفعل العكس وتمرض الطفل نفسياً وعقلياً وتعمل على اضطراب شخصيته واهتزازها.

وآخيراً فالكنز فى الحكايات دائماً مرصود يحيط به الطلسم الذى لابد من حله للوصول للكنز والكنز هو العقل والطلسم هو العلم ولذلك لابد للطفل من العلم لكى يصل إلى الكنز وهو العقل.

بقلم د/ عبد الغنى عبد الحميد رجب
طبيب نفسانى
وعضو الجمعية المصرية للطب النفسى